من فلسفة الإذاعة

الإذاعة فن وحيـــاة

للاستاذ يوسف الحطاب

« تحية لمعالي الدكتور حامد زكي بك وزير الأذاعة بمناسبة جولته الفنية في الخارج »

« الأذاعة فن وثقافة وحياة »

هذا هو التعريف الكامل الذي أطلقه الأستاذ راشد رستم في تقريره الأخير عن جهوده المشرفة بالقسم الأوربي.

وكم كان يودنا ألا يقف عند هذا التعريف السريع مع صحته وأن يتناوله بشيء من الشرح والتفسير، بما عرف عنه من روح العلم والتحليل، حتى يسد فراغا يلمسه نقاد الفن حين يحاولون تفسير الظاهرة الإذاعية، والكلام عن وسائلها وعن القائمين بها. ويظهر أنه أراد أن يسلم هؤلاء النقاد الموضوع بكرا ليفتقوا جوانبه، ويجلوا بعض ما غمض فيه. ولكن إذا كان الناقد في مثل هذا المجال مضطراً إلى التوفر على إجلاء جوانب الموضوع — ما دام صاحب التعريف قد فتح الباب أمامه ودعاه إلى إعمال ذهنه في الفهم والتفسير — فإنه مضطر كذلك إلى مجاراة صاحب الموضوع في السرعة، فيعرضه بسرعة الصوت الذي هو وسيلة الإذاعة نفسها، وإن كان واجبه يحتم عليه الوقوف عند أطراف التعريف وقفات غير طويلة.

وأول ما يصح للناقد أن يقف عنده هو الطرف الأول من التعريف « الإذاعة فن »، ولا شك أن هذا هو التعريف الجديد الذي تقدمه المدرسة الحديثة لتفهم الإذاعة فهما صحيحا. وهو فهم يرفض الرأي القديم القائل بأن الأذاعة حرفة يمكن أن يشتغل بها كل إنسان عاطل من الموهبة الإذاعية. ولقد كان هذا الرأي القديم يبطل إنسانية الأذاعة، ويحيلها إلى لعبة آلية يمكن أن يلهوا بها كل من أفسح الطريق أمامه، أو قرأ كتابا على هامش فن الإذاعة، مع أن هذا الفن عملية فكرية مركبة لا يمكن أن يجيدها إلا كل إنسان يحس في نفسه حياة إذاعية، ويشعر بحاجة مجتمعه الحي إلى هذا اللون من الفن، وتكون عنده القدرة على تحقيق موهبته بالفعل، فليس فن الإذاعة نوعا من المهارة بل هو الحياة نفسها كما تبدو في الصلة بين المذيع والمستمع مهما كان لون الحديث الذي يقدمه.

ويبدو أننا قفزنا إلى موضوعنا مرة واحدة يربطنا بين الأذاعة وحياة المشتغلين بها من جهة، وبينها وحاجة المجتمع اليها من جهة أخرى. والواجب يقضي بأن نتعرف إلى طبيعة الإذاعة نفسها، وما تحمل من عناصر وجودها التي تلتقي مع هذين العنصرين: النفسي منهما والاجتماعي. وعندنا أن هذا الفن وقد دفعت إلى ظهوره الصورة الملحة والرغبة في الاتصال بجموع الناس، فإن طبيعته قد تحددت وسط زوابع الفنون الأخرى التي وجد المجتمع أنها لا تفي بحاجته في التعبير عن حياته — وحياته الإذاعية بالذات.

والحياة الإذاعية التي نقصدها هي التي تحدد طبيعة الأذاعة نفسها. وتتمثل في شعور المجتمع بأن فيه وفي نفوس أفراده أشياء مكبوتة، وظيفة الاذاعة هي الإفضاء بها بمعنى إفراغ مضمونها ورفع الحجاب عنها. وهذه حقيقة لها سند من التاريخ — التاريخ الحقيقي لهذا الفن. والاذاعة لم تبرز إلى الوجود إلا بعد أن ظهرت نظريات العقل الباطن وروجت المدرسة النفسية لفكرة الكبت ونادت بضرورة التنفيس وقدمت التحليل النفسي كعلاج. والظاهرة الإذاعية في حقيقتها قريبة من جوهر الاعترافات التي يطلقها المريض أمام المحلل النفساني.

وليس معنى هذا أن كل ما يذاع أمام الميكروفون اعترافات سيكوباثولوجية، بل هي عملية إفضاء أو إفراغ نفسية لما يدور داخل النفس، وتصوير هذا العالم بالأصوات المعبرة. أو على الأقل هذا ما يجب أن يكون عليه شكل الاذاعات والطريقة التي يجب أن تذاع بها حتى تكون الإذاعة حديث نفس إلى نفس يريح كلتا النفسين من الدفين بها. وبهذه الطريقة وحدها تحقق الإذاعة وظيفتها وقدرتها الكاملة على التأثير في الفرد والجماعة. وتؤكد وجودها كفن قائم بذاته له طبيعته وخصائصه المنفصلة عن بقية الفنون.

ولا نريد أن نذهب بعيداً في التدليل على صحة نظريتنا، ونكتفي بأن نقول إن وظيفة الاذاعة قريبة من وظيفة المسرح والسينما. وأنهما إذا كانا يقومان بتطهير العواطف.

بشكل ما بأن الإذاعة تحقق هذه بشكل أوسع لأن الرغبة في الإفضاء طبيعية في نفس كل منا للكبت اللاحق بها . هذا الكبت الذي يحول دون أن يخلص كلٌ ذاته مما يريد الإفضاء به . وحتى إذا استطاع أن يتغلب عليه فإنه تعوزه القدرة على التعبير — وهذا ما يحققه المذيع أو ما يجب أن يقوم بتحقيقه مهما كانت مادة الحديث الذي يقدمه — فإذا كان تجربة عاطفية وجب أن تتمثل فيها تلقائية العاطفة وأصالتها . وإذا كان بحثا فكريا وجب أن يتميز بالجدة أو العرض المبتكر .

هذه هي مادة الاذاعة وطبيعتها ، أما الشكل أو الإطار الفني الذي تقدم من خلاله هذه المادة فالواجب يقضي بضرورة اشتراكه معها في تلك الطبيعة الإذاعية . ورغم ما يذهب إليه البعض من أن المادة تحتم الشكل وتصنعه ، فإني أرى أنه يجب ألا يترك الشكل خاضعا لها ، فكثيرا ما يرتفع جانب الشكل بجانب المادة . وإذا اجتمعت المادة مع الشكل تم الطرف الأول من عملية التعبير الإذاعية ، ولم يبق إلا أن نعرف كيف تتم عملية التعبير كلها ، أو نعرف على الأقل الوسيلة إلى إيصالها إلى الطرف الثاني وهو المستمع وهذا أمر لا يتم إلا عن طريق الصوت والصوت وحده — لا الكلمات أو النغم . أقول هذا لمن أحالوا فن الإذاعة الى حشد متزاحم من الكلمات التي تصدع الرؤوس ، والنغمات التي تملأ فراغا يشعر به مقدم البرنامج — ويشكو الأستاذ راشد من ذلك الفراغ في تقريره مر الشكوى .

إن الإذاعة فن متفرد بذاته ، وهذا التفرد يتمثل في الوسيلة التي يستخدمها ، ولا نقصد بالوسيلة الصوت المجرد القائم على ذبذبات لا تحقق التعبير الذي تهدف إليه ، بل نقصد أننا مادمنا نريد إفراغ نفوسنا مما بها ، فلا بد أن يتخذ هذا الصوت شكلا فنيا مؤثرا يخضع للتقاليد الفنية السائدة في كل الفنون . ومادامت هذه الفنون تخضع وسائلها لتقاليد الفن art conventions فعلى الاذاعة أن تجاريها عند استخدام وسيلتها ، فلا تقدم الصوت الإنساني كما هو ، عاريا من كل تأثير ، بل لابد أن يدخل الفن عليه ، ويتناوله بالمعالجة ، ويخضعه لطبيعة الاذاعة الثائرة حول الافضاء بغية تحقيق التأثير الصوتي .

وقد يثور على هذا القول أصحاب المدرسة القائلة بضرورة أن يكون الفن صورة منسوخة من الحياة . والرد عليهم بسيط فالاذاعة ككل فن تستطيع أن تجمع في وقت واحد بين محاكاة الحياة وتظل خاضعة في نفس الوقت لمتطلبات الفن . وإن يحدث ما يطالبه أصحاب هذه المدرسة إلا حينما ينزل الميكرفون إلى الشارع ويدخل بيتي وبيتك ، ويكشف عن حياتي وحياتك ، ويقدم مأساة أسرتي وأسرتك — وهذا أمر يصعب تحقيقه الآن . وحتى يتم فانا نطالب بأن تعتصر الوسيلة الإذاعية حتى آخر قطرة فيها وتقدم الصوت في أدق صوره الفنية . وطريقنا إلى ذلك واضح بسيط يتمثل في الرجوع به إلى حقيقته الأولى ، في الصورة التي ظهر عليها منذ بدء الإنسانية ، منذ قرع الإنسان أول طبول الغابة ، حتى استخدمه العصر الحديث في نفير السيارة وصفارة الإنذار ليفيه الناس أقوى تنبيه ، في أقصر وقت ، وبأقل جهد ، مؤكداً بذلك أن الصوت قادر على إبلاغ رسالته إلى أبعد حد ، دون اعتراف بحوائل الزمان والمكان ، أو وقوف عند الحدود الضيقة التي تقف عندها كلمات اللغة أو نغمات الموسيقى التي نستخدمها الآن .

ولو وفقت الاذاعة إلى استخدام الصوت بهذه الطريقة ، لالتزمت وسيلتها الحقيقية ، وضمنت عدم انصراف الناس عنها ، ولما حدث لها مثل الذي حدث للسينما من انصراف الجمهور عنها حينما خرجت على وسيلتها التي تتمثل في الصورة . والناس على حق في انصرافهم ، لأن الفنون حين تثور على حدودها تفقد فنيتها .

وإذا كنا نقيس الفن بمقدار تأثيره في الناس ، وعدد من يحركهم ، وطول الزمن الذي يظل تأثيره فيهم ، فقد رأينا أن الصوت كانت له القوة على تحريك الناس في كل زمان وكل حضارة نحو الهدف الذي يريده مذيع الصوت ، وسيظل كذلك والشكوى من انصراف الجمهور عن سماع الاذاعة ، والنقد المتوالي لها ، يجبهما حسن استخدام الصوت لأنه كفيل بحمل الجمهور على الأستماع اليها ، وتوجيهه نحو الهدف الذي نريده له .

ومهما قيل من نقد لرأينا فيكفي للرد أن المستمع لا يعرض لصاحب الإذاعة تعرضاً مباشراً — كما هي الحال في الحياة — بل إنه يستمع إلى صوته أو أصوات الشخصيات التي يقدمها من بعيد عن طريق هذا الكائن الجديد الذي يوصل إليه مادة الاذاعة .

وتأثير هذا في المستمع يختلف كل الاختلاف عما لو استطاع إليه